تاريخ مصر السياسي من ١٥١٧ الى ١٧٩٨ » . وهذا البحث يسد ثغرة في دراسة الفترة الاولى من العهد التركي في مصر . وقد اصاب صاحب البحث بقوله انه لم تظهر الى الآن دراسة شاملة مفصلة لتاريخ مصر السياسي في العهد العثماني وان المراجع التي استند اليها من كتبوا عن هذه الفترة لا تلقي سوى ضوء ضئيل على القرنين الاولين من العهد التركي . وبين ابحاث هذا القسم بحثان عن الحركة القومية المصرية في ظل الاحتلال البريطاني والحماية البريطانية ، استغل فيهما صاحباهما بعض المواد الجديدة التي ظهرت مؤخرا والتي تلقي ضوءا جديدا على الاحزاب السياسية المصرية .

اما القسم الذي يعالج المراجع فلا يستغني عنه الباحث في تاريخ مصر ، لانه يشير الى عدد من المراجع والوثائق ويعلق على مدى اهميتها واحيانا على طرق الاستفادة منها في دراسة تاريخ مصر الحديث. وبين هذه الابحاث بحث بعنوان « بعض المراجع الانكليزية لدراسة تاريخ مصر الحديث » يشير الى طائفة من الوثائق والاوراق الخاصة ومكانها .

ويمكن القول بوجه عام ان المؤتمر كان ناجحا، فقد وفق القائمون عليه كثيرا باختيار الموضوع وبذلوا جهدا موفقا في تنظيمه وتوفير الجو العلمي الملائم له . ثم انهم جمعوا عددا لا بأس به من المختصين الذين يتعذر جمعهم في غير مثل هذا المؤتمر.

الوعي الجديد في الجامعات

وشنطن ، من جريمي ولفندين :

في الولايات المتحدة زهاء خمسة ملايين طالب واستاذ جامعي . وهذا الرقم اكبر بسبع مرات من عدد الاشخاص الذين توظفهم مصانع السيارات في البلاد ، واكبر بست عشرة مرة من مجموع عدد الاشخاص الذين يعملون في سائر نشاطات مشاريع الفضاء . ومع هذا فان العالم الجامعي لم يحدث اثرا جماعيا في السياسة الامريكية وتخطيطها الا في الاشهر القليلة الماضية .

فقد قام اساتذة هنا وهناك بانتقاد السياسة الامريكية في الفيتنام ، وعقد الطلاب اجتماعات للاحتجاج على قصف الفيتنام الشمالية بالقنابل ولمطالبة القوات الامريكية بالجلاء عن الفيتنام الجنوبية ؛ وعندما نزلت القوات الامريكية في جمهورية الدومينيكان في الربيع الماضي ارتفعت اصوات الطلاب بالاحتجاج بصورة تلقائية تقريبا من اقصى البلاد الى اقصاها . وسرعان ما ادركت حكومة الرئيس جونسون، الحساسة دوما للنقد الذي تتعرض له ، اهمية هذه الهجومات .

فارسلت عددا من كبار موظفي وزارة الخارجية الى الجامعات في كافة انحاء البلاد ليدافعوا عن سياستها في الفيتنام ، وشجعت الاساتذة الجامعيين الذين يكنّ لهم الطلاب الاحترام، والذين يساندون الموقف الامريكي الرسمي ، على القاء تصريحات علنية دفاعا عن ذلك الموقف .

وكانت نتيجة هذا كله ما اخذ يعرف الآن بنظام الـ « Teach-in » — اي المناظرات والمناقشات العلنية فيما يتعلق بسياسة الحكومة. وقد استهلت هذه المناظرات ، بشكل لم يكد يفطن اليه انسان ، في جامعة ميتشيغان في ٢٤ آذار (مارس). ولم ينقض شهر حتى كانت قد انتشرت من عرض البلاد الى عرضها . ووصلت ذروتها في مناظرات وشنطن في ١٥ ايار (مايو)، التي اذيعت على اكثر من مائة وعشرين جامعة في خمس وثلاثين ولاية مختلفة .

وقد قمت بجولة في عدد من الجامعات اثر هذه المناظرة، فوجدت ان الحشود التي استمعت اليها تبعث على الدهشة — لا من حيث وفرة عددها فحسب ، بل ايضا من حيث طابعها وصفاتها . فالمنظمون في كثير من الجامعات كانوا يتوقعون (وفي الواقع كانوا يخشون) ان تكون الاجتماعات اجتماعات يسارية . لكنهم وجدوا ، عوض ذلك، جمهورا متشعب الآراء والاتجاهات من الطلاب والاساتذة الشبان الذين يحاولون باخلاص وصدق الوصول الى قرار ورأي في قرارة انفسهم .

والواقع ان كثيرين منهم كانوا من انصار سياسة جونسون ، وظلوا على رأيهم الذي لم تنجح المناظرة في تبديله ؛ ولكن الشيء الممتع هو انهم شعروا بان القضية تهمهم وتعنيهم الى حد جعلهم يضحّون ببعد ظهر سبت مشمس في وسط ايار (مايو) كيما يتدارسوا الحجج التي يقدمها كل من الطرفين. وقيل لي ان مثل هذا الشيء لم يكن من الممكن مطلقا ان يحدث لخمس سنوات خلت . كانت تلك الفترة فترة « الجيل الرفيق » ، فترة الفتيان المتأنقين الذين كان هدفهم تأمين درجة علمية محترمة والحصول على مؤهلات تفتح امامهم سبيل المراكز التنفيذية في الشركات الكبرى .

لكن تحولا عظيما طرأ منذ ذلك الحين . لا مجرد شعارات الطلاب وتقليعاتهم ، كما اعتقد بعض المعلقين — فان هؤلاء الطلاب الشبان ليسوا من مطلقي اللحى او الممتنعين عن الاغتسال ، ومن الخطأ ان نصفهم بفئة « البيتنكس » او الصعاليك المحدثين . والواقع ان فئة البيتنكس الاصلية كانت منصرفة عن السياسة ولم يكن يبزّها في لامبالاتها بالشؤون السياسية احد .

كما ان هؤلاء الطلبة ليسوا غلمانا يافعين يجتازون المرحلة الصعبة ، مرحلة الثورة على عالم والديهم وما فيه من يسر وراحة . فكثيرون منهم طلاب قد سبق ان نالوا شهاداتهم ويعملون الآن لشهادات عليا ، او اساتذة شبان ، متزوجون ، وقانعون بحيواتهم لحد معقول. وفي الاجتماعات تجد من الاطفال الصغار الذين يلعبون عند اقدام المجتمعين عددا اكبر مما تجد من الرايات المرفوعة فوق الرؤوس . لكنهم يشعرون بان المواطن العادي في الولايات المتحدة مبتعد بعدا سحيقا عن الاشخاص الذين يصنعون ويخططون سياسة الدولة والذين قد يطلبون اليه في يوم من الايام ان يموت من اجلها .

اخبرني مدرس شاب للعلوم السياسية بان «الحركة»، كما اسماها ، اقدم عهدا في الواقع مما يدرك الناس . فبانتخاب كندي رئيسا للجمهورية ابتدأت الموجة الجديدة . واصبحت السياسة ، لاول مرة ، لا مسألة تطبيقات و دورانات ، بل حرفة يمكن للمرء ان يكرس ذاته لها تكريسا تاما . وفي الوقت ذاته انشئت اجهزة يمكن لمثالية الشباب ان تعبّر عن ذاتها من ضمنها ، وكان ابرزها كتيبة السلام .

على هذا الشكل مشت وتطورت ثقافة الطالب الجامعي الامريكي على نفسه . فالتحق بعض المتحمسين بكتيبة السلام . وذهب آخرون الى ولايات الجنوب ليعملوا في حركة الحقوق المدنية . وذهب آخرون سواهم الى الاحياء الفقيرة في المدن الشمالية ليعملوا في البرنامج المتعلق بالفقر . ظلت الاكثرية الساحقة حيث هي — لكن كل فرد منها تقريبا كان يعرف صديقا او صاحبا مرتبطا بهذه النشاطات ارتباطا فعليا .

اما الاهتمام بالشؤون الخارجية فقد جاء آخر الامر . فان ما تتسم به معظم المشاكل الدولية من بعد سحيق ومن تعقيدات ، كان قد عزل الطلاب عن الاهتمام بها . لكن طوال السنة الفائتة عمل انشغال الصحافة انشغالا كبيرا متزايدا بقضية الفيتنام ، على اجتذاب اهتمام الطلاب بهذه القضية . ويبدو ان نزول القوات الامريكية في سانتو دومينغو كان القشة الاخيرة . فقد اثار ردة فعل عاطفية لم تكن موجودة في النقاشات حول الفيتنام.

كان من الطبيعي ان يقود هذا الى ان يقوم بعض الموظفين وانصار سياسة الرئيس جونسون بمهاجمة راديكاليي الجامعات على انهم « ميالون للشيوعية ». فهم تكال لهم التهمة بانهم ، في احسن الاحتمالات ، فتيان طيبو القلب لكنهم ساذجون غررت بهم الدعاية اليسارية ؛ وفي اسوأ الاحتمالات بان منظماتهم قد تسرب اليها الشيوعيون .

ان الذين يعملون في الجماعات اليسارية المختلفة حساسون الى اقصى درجات الحساسية لمثل هذه الاتهامات . لقد عرفوا تجارب واختبارات مريرة لها خلال حملة الحقوق المدنية ، على يد انصار التفرقة في الولايات الجنوبية. ونتيجة لذلك فانهم ينكرون علانية انكارا تاما انهم يعرفون عن اي شيوعيين لهم علاقة بالجماعات التي يعملون فيها .

الا انهم اكثر صراحة واكثر واقعية عندما يتحدثون في حلقات خاصة. فهم يعترفون بان تنظيمهم مخلخل غير متماسك ، بحيث يسهل التسرب الى حركتهم . لكنهم يصرون على ان ايمان الاعضاء بالرأي الديمقراطي كبير الى حد ان الحزب الشيوعي الامريكي الهرم لا يمكن ان يلحق بهم ضررا بالغا.

والواقع ان عدم تنظيمهم تنظيما رسميا هو ضمان لهم ضد امكانية السيطرة الشيوعية عليهم . فليس في « الحركة » اعضاء رسميون بمعنى الكلمة، وليس لها ممثلون موظفون ، ولا اعتمادات مركزية . هناك بعض المنظمات الفردية، مثل « منظمة الطلاب سعيا الى مجتمع ديمقراطي » ، لها مكتب وتلفون ،لكن يبدو ان فروعها من جامعة لجامعة تنعم باستقلال ذاتي لحد كبير . وهذا يجعل من الصعب جدا على اي حزب سياسي منظم ان يستغل مثاليتها. والاسلوب الشيوعي التقليدي ، القاضي بوضع اعضاء من الحزب في مراكز حساسة في الأجهزة الرئيسية ، وهو الاسلوب الذي كانوا يستعملونه في الماضي في نقابات العمال ، لا يجدي هنا .

قد يكون سهلا تحديد ما ليست اياه وجهات نظر « الحركة » السياسية – لكن من الصعب جدا تحديد ما هي فعلا وجهات النظر هذه . فهي حتما تجنح كثيرا الى يسار كل من الحزبين السياسيين الرئيسيين في امريكا ، في كل من المسائل الداخلية والشؤون الدولية .

لكن اعضاءها ليسوا جميعا ماركسيين بشكل من الاشكال ، بل وليسوا اشتراكيين بالمعنى الذي تُفهم به هذه اللفظة في اوربا الغربية. ان غالبية الذين تحدثت اليهم لم يكونوا يتقبلون اي تحليل فرد بحد ذاته للمجتمع على اساس عقائدي او اقتصادي. واذا كان ممكنا ان نجد اي مذهب واحد يقبلون جميعا به ، فانما هو اهمية الفرد والحاجة الى حمايته من القوى التلقائية في المجتمع – سواء اكان فلاحا فيتناميا ، او زنجيا محروما من حق التصويت في ولاية ميسسيبي ، او صاحب حانوت في سانتو دومينغو .

وهذا مصدر قوتهم ومصدر ضعفهم في آن معا. هو مصدر قوتهم لانه يجعل من الصعب جدا ، ضمن التراث السياسي الامريكي ، مقاومتهم من حيث الاساس والمبدأ. فعلى خصومهم اما ان يقولوا ضمنا انهم مضللون ، او ان يحاولوا اقامة البرهان على ان المنهج الذي يقترحونه سينتهي في الواقع بحال الفرد الى الشر لا الى الخير .

وهو مصدر ضعفهم لان حظ جماعة من الافراد المخلصي التنظيم بالتأثير في السياسة، هو محدود جدا. انهم لا يستطيعون ان يعملوا عن طريق اية منظمة سياسية قائمة ولا عن طريق نقابات العمال . وهذا يقلل من حصولهم لا فحسب على اهتمام الصحافة باخبارهم وتغطيتها بكل شكل من الاشكال ، بل ايضا على العون العملي الصرف، المالي بل والسكرتيري، الذي لا غنى عنه في حملة طويلة ذات مفعول. ومع ان الصحافة الامريكية قد عالجت الامر بعدالة وامانة ، فان جانبا كبيرا من اصوات الطلبة لم يُسمع مطلقا . وهذا على العكس تماما مما حصل ، مثلا ، في حال حملة نزع السلاح النووي في بريطانيا قبل سنوات خمس . وربما كان اعضاء تلك الحملة منوعين جدا في وجهات نظرهم السياسية ، للحد ذاته كما في اعضاء هذه « الحركة » – لكنهم كانوا يتمتعون بمعاضدة اقلية محنكة سياسيا في حزب العمال وبمعاضدة بعض نقابات العمال .

كما ان عدم تنظيم « الحركة » تنظيما دائما سيؤثر ايضا في مستقبلها . فالطلاب يتخرجون ويتزوجون ، والازمات تنتقل من الصفحات الاولى الى الصفحات الداخلية في الجرائد ومن ثم تختفي كلية ، وزخم الحماس يضيع .

ولعل نقاشات الطلاب هذه ستترك اطول نتائجها بقاء و دواما على الطلاب انفسهم. لقد كانت الاستجابة التقليدية للمواطن الامريكي تجاه اية ازمة، وخاصة ازمات السياسة الخارجية ، كما يلي : « لا تهز القارب . ان الرجل في البيت الابيض لديه جميع الحقائق ، وهو يعرف خيرا مما نعرف نحن » .هذا الافتراض قد تعرض الآن لتحدٍّ خطير .

ان بعضا من هؤلاء الطلاب قد وصلوا سن التصويت والانتخاب ، وجميعهم تقريبا سيصلون هذه السن قبل ان يحين موعد انتخابات الرئاسة القادمة. قد يحدث ان يكونوا عندما يحين ذلك الموعد قد بدلوا آراءهم بخصوص مزايا سياسة الرئيس جونسون القديمة والحالية . لكنهم سيكونون على الاقل قد اهتموا بان يفكروا وان يطلعوا على السياسة الخارجية الامريكية بشكل لم يفعله اي جيل سابق لهم مطلقا .